- Ramsès Younan رمسيس يونان

Ramsès Younan, The future of culture in Egypt, Cairo, 1940

- Artworks الأعمال الفنية
- Writings كتابات
- Biography السيرة الذاتية
- Bibliography قائمة المراجع
- Critical Essays مقالات نقدية
- Catalogue Raisonné فهرس
- Archives أرشيف
- Information معلومات

Article published in Al-Tattawar
the 1st of January 1940

c) Archives Ramsès Younan)

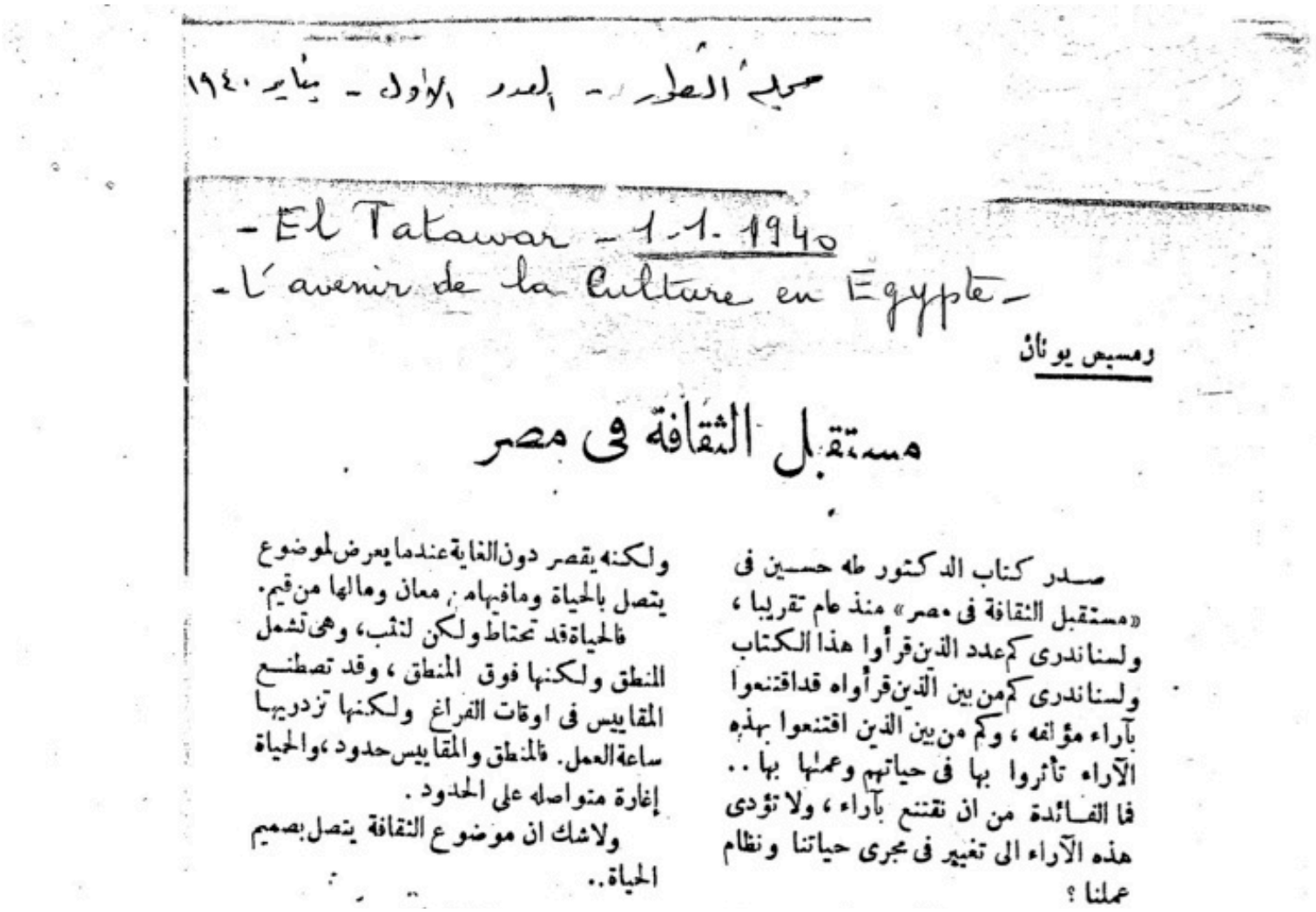

صدى الطور - العدد الاول - يناير ١٩٤٠

- El Tatawar - 1-1-1940
- L'avenir de la Culture en Egypte -

رمسيس يونان

مستقبل الثقافة فى مصر

صدر كتاب الدكتور طه حسين فى «مستقبل الثقافة فى مصر» منذ عام تقريبا ، ولسنا ندرى كم عدد الذين قرأوا هذا الكتاب ولسنا ندرى كم من بين الذين قرأوه قد اقتنعوا بآراء مؤلفه ، وكم من بين الذين اقتنعوا بهذه الآراء تأثروا بها فى حياتهم وعملها بها .. فما الفائدة من ان نقتنع بآراء ، ولا تؤدى هذه الآراء الى تغيير فى مجرى حياتنا ونظام عملنا ؟

ولكنه يقصر دون الغاية عندما يعرض لموضوع يتصل بالحياة ومافيها ، معان ومالها من قيم. فالحياة قد تحتاط ولكن لتثب، وهى تشمل المنطق ولكنها فوق المنطق ، وقد تصطنع المقاييس فى اوقات الفراغ ولكنها تزدريها ساعة العمل. فالمنطق والمقاييس حدود ، والحياة إغارة متواصله على الحدود .

ولاشك ان موضوع الثقافة يتصل بصميم الحياة..

ويزعم قوم ان الدكتور طه حسين مجدد متطرف ، وانه ثورى التفكير ، بل ويزعمون انه ملحد ، ونبحث نحن عن هـذه الصفات الخلابة فى طه حسين وعما يشابهها مما يكال له بغير حساب ، فنعجب ولا نعرف اى المقاييس يصطنع هؤلاء القوم فيما يزعمون

وكيف يستطيع الدكتور طه حسين ان يكون متطرفا أوثوديا وهو رجل جامعى ، وفى طبيعة الرجل الجامعى المعاصر التشكك والتردد والتوسط ، ولسنا نفهم كيف يكون التطرف فى التجديد بغير ايمان ، وكيف تكون الثورة بغير ايمان ، وكيف يكون الالحاد بغير ايمان بالالحاد ..

ومن صفات الجامعى الحيطة ومراعاة اوجه النظر المختلفة ، ومن صفاته الغرام بالمنطق والشغف باصطناع المقاييس الهندسية الدقيقة وهذا اسلوب فى التفكير يصلح — بل هو ضرورى — لانواع خاصة من الابحاث العلمية

ومن عجب ان يكتب الدكتور طه حسين كتابا ضخما فى مستقبل الثقافة دون ان يحاول تعريف «الثقافة» ، فهل يظن الدكتور ان معنى هذه الكلمة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعريف؟ ام هو يدرك صعوبة هذا التعريف فآثر اختصار الطريق ؟ ام هو يترك للقارىء فهم ما يعنيه بها خلال السطور ؟

والذى نفهمه خلال السطور هو ان الدكتور طه حسين يعنى بالثقافه تارة العلم والمعرفة ، وليست هى العلم والمعرفه وان كانت تشملها ، وأنه يعنى بها تارة ذلك الترف الذهنى الذى يستمتع به اولئك المدعوون بالمثقفين عندما يجتمعون فى منعزل هادىء بعيد عن اصوات المدينه ليديروا الحديث سائحين خلال كنوز الارض البعيده والقريبه ، وليست الثقافه ترفا ذهنيا فهى مجهود ونضال فى سبيل حياة غنيه متفتحة زاخرة ، وليست هى مجرد

تراث يتوارثه الأحفاد عن الأجداد للمتعة والاستهلاك والسياحه الذهنيه ، ولكنها خلق وانتاج وعمل تمتزج فيه اليدان مع الفكر ويندمج فيه الذهن المتنبه مع تلك الدوافع الخفيه التى توجه حركة الانسان .

الثقافه هى ثمرة الحياة ، والحياة الغنيه تشمل التأمل كما تشمل الممارسه ، وتتغذى بالعلم والمعرفه كما تتغذى بالمباشرة والتجربة ، فيها فلسفة ومنطق وحساب ، وفيها خيال وشعوره

بذلك هذا الاحساس بمسئولية الفرد نحو نفسه .

والشعور بالمسئولية يثير الجرأة على التفكير المستقل كما يثير الجرأة على تحمل تبعة هذا التفكير . والتفكير المستقل هو التفكير الايجابى المهاجم ، وهو التفكير الذى لا يسير فى الخطوط المرسومة بل يرسم لنفسه الطريق ، وهو الذى لا يتردد داخل جدران الانظمة المتبعة بل يصر على تغيير ما يعترضه من نظام — إن التفكير

وحلم ..

الثقافه تقوم على صراع أوتعاون بين ذهن الفرد وذهن غيره، وبين مشاعر الفرد ومشاعر غيره ، وبين جسم الفرد وجسم غيره . وهى تقوم أيضا على صراع اوتعاون بين الذهن والجسم والشعور

الثقافة تعتمد على التربيـة كما تعتمد على التعليم ، وتعنى بقيم الحياة اكثر مما تعنى بمقادير المعلومات وتهتم بالتوجيـه والنزعـة والسلوك اكثر مما تهتم بالعلم الخالص والادب الخالص والفن الخالص .

نريد ان نقول ان موضوع الثقافة يتعلق بالاخلاق كما يتعلق بالمعرفه والعلم .

• • •

ولسنا نعنى بالاخلاق الوصايا العشر ،فهذه لاتستحق اللوح الذى كتبت عليه . وانما نعنى بها قبـل كل شىء ذلك الشعور العميق بالكرامة الانسانية الذى يمتد من كرامة الفرد إلى كرامة الجنس البشرى ، وماينطوى عليه هذا الشعور من احساس قوى عريض بالمسئولية الشخصية يبعث فى النفس مقتا شديدا لمختلف النظم التقليدية والفضائل الموضوعه التى تأتى من الخارج لتفرض على الفرد اطاعتها ،فتعارض الجرىء هو التفكير الخطر .

ويحدثنا الدكتور طه حسين المرة تلو المرة بأننا أمة قد اغرمت بالديمقراطية كمثل اعلى لها فى الحكم ، ولكنه نسى ان يذكرنا بأن نجاح الديمقراطية اوفشلها لايتوقف فقط على معلومات جديدة نتلقنها بل على اخلاق جديدة نمارسها ..

فلسنا نفهم كيف تكون الأمه مصدر السلطات وتعمل الامه على الرقى بنفسها مالم يترب فى قلوب افرادها هـذا الشعور العميق بالكرامه والمسئوليه. ولسنا نفهم كيف يكون الفرد عضوا نافعا ذا رأى فى الحكم حقا مالم يتعود التفكير الحر الجرىء .

ليس يكفى ان يكفل الدستور حرية الافراد ليصبحوا احرارا حقا ، فلابد من ان نمارس الحرية لنتعلم الحرية ، ولابد ان يعتمد الفكر الحر على خبرة وتجربة حرة ليتقوم وينضج ويثمر .

• • •

على ان تفكير الدكتور طه حسين فى الاصلاح يسير داخل حدود ضيقة ، وهو عندما يفكر لايسمح للخيال والرؤى ان تدفأ قلبه ، آية ذلك انه يكاد يوهمنا بانه يكفى أن

نطالب المدرسين بالحصول على درجة جامعية أعلى ، وان نعدل بعض التعديل فى برامج والتفتيش والمراقبة

الدراسة حتى ينصلح التعليم وتزدهر الثقافة.
وآية ذلك انه اراد ان يضرب لنا الامثلة فى نظم التعليم التى ينبغى علينا اقتداؤها ، فلم يجد خيرا من تلك النظم التى تسير عليها المدارس الفرنسيه الحكومية او شبه الحكوميه وليست هذه المدارس بخير مدارس فرنسا وليست خير المدارس فى فرنسا بأحسن المدارس فى اوروبا الغربيه ، وليست احسن المدارس فى اوروبا الغربيه بخير المدارس فى اوربا كلها وليست خير المدارس فى اوربا بأحسن المدارس فى العالم ، وليست احسن المدارس فى العالم المثل الاعلى للمدارس ، ولكن الدكتور طه حسين متواضع وان يكن يعلن بغضه للتواضع .

ونظام التعليم فى مصر — كما هو فى كثير من البلاد المتمدنة وغير المتمدنة — من الفساد بحيث اننا نعجب كيف لم يثر عليه الطلبة والمدرسون حتى الآن ... أساس هذا النظام هو عدم الثقة بالطالب ، وعلى هذا الأساس ينبنى مايتحدث عنه الدكتور طه حسين من عدم ثقة النظار والمفتشين بالمدرسين . وعدم ثقة المراقبين بالنظار والمفتشين ، وعدم ثقة الوكلاء بالمراقبين وهلم جرا الى آخر السلم . ولكن الأساس هو عدم الثقة بالطالب ، فوزارة المعارف تفترض من بادىء الامر أن الطلبة لايرغبون فى العلم اختيارا ، اذن فهى مضطرة — تبريئا لذمتها — الى أن تنشر العلم بينهم قهرا ، واذن فهى مضطرة الى أن تصطنع الانظمة الادارية المحكمة والعقوبات الدقيقة والى أن تتفنن فى أساليب الامتحان والاشراف الصغير المدرسة ، تبدأ ملاحظته ملاحظة دقيقة حتى لاينحرف عن (النظام) وكلما كبرت سنه شددت عليه الملاحظة ، فتراقب حركاته وسكناته ، وتعد عليه خطواته كأنه مشبوه أو متشرد لو غفلت عنه عين الرقيب لحظة لقتل ونهب واقترف من الاثم ماتقشعر له الابدان

والمثل الاعلى (للنظام) وقت الدراسة هو أن يجلس الطالب كما يجلس متصوفة الهنود ، لايحرك رأسه الى يمين ولا إلى يسار ، شاخصا ببصره الى الامام ، لايتكىء بذراعه على القعطر ، ولا يفوه بكلمة . وعلى الاخص أن يقطع كل صلة بينه وبين الطلبة الآخرين ...

هذا هو نظامنا المدرسى ، نظام يقتل الشعور بالكرامة ، ويخمد الاحساس بالمسئولية النفسية ، ويكبت الفكر والتعبير الصريح ويشل النمو الطبيعى للملكات والمواهب المختلفة . .

انه نظام مفسد للمجتمع المدرسى ، مفسد للاخلاق بلا دراء .

الصلة بين المدرس والطالب مشوهة ، والصله بين الطالب وكتبه عقيمة وليس هناك صلة بين الطالب وزميلة ساعة العمل ، فكيف تكون الثقافة

فلنبدأ أولا باصلاح يمحو هذا النظام . وليكن اصلاحنا قائما على اليقين الراسخ بأن الطفل أو الصبى أشد رغبة فى العلم . والثقافة بمعناها العريض من معلميه . وأن الطفل أو الصبى بنزعاته وحاجاته ونفسيته الخاصة هو الذى يجب أن يقود المدرس وليس العكس نريد اصلاحا يجعل من المدرسة مجتم

حيا خافقا . فيـــه حركة ونشاط وممارسة فيه فن وشعر وبحث حر .فيه نقاش وتبادل ذهنى. فيه تعاون وتواصل وصداقة ، فيه غذاء للذهن والقلب والارادة . فيه غذاء للثقافة

ولقد أجريت فى العصر الحديث عشرات التجارب لاصلاح النظم المدرسية المعروفة . فأدى الـكثير منها إلى نتائج باهرة ومازالت أذهان المفـكرين من رجال التربية تعمل وتكد وتنتج الآراء . ولعـل الدكتور طه حسين يستطيع أن يجد بين رجال معهد التربية من يحدثه عن هذه التجارب والآراء حديثا غير قصير . ولـكنه لايعنى إلا قليلا بالتربيه . وهو يستـكثر أن يطالب خريجوا الجامعة باضاعة سنه كاملة من أعمارهم الغاليه فى دراسه التربيه .

***

ومن عجب ان يكتب الدكتور طه حسين كتابا ضخما فى مستقبل الثقافه فى مصر دون أن يشير بكلمه الى الثقافه الجنسيه . مع مالهذا الموضوع من قيمه محوريه فى الحياة

ولسنا نعنى بالثقافه الجنسيه بضع معلومات تلقن فى علم الحياة ولايكفى لذلك حتى الالمام بنظريات فرويد على ضرورته. فالثقافه الجنسيه معنى واسع يشـمل كل مايمـكن أن يقوم بين فردين من الجنسين من صلات . قد تـكون الصلة حبا ينتهى أو لاينتهى بزواج وقد تكون تعاطفا ذهنيا أو تبادلا عاطفيا أو صداقه حميمه أو مودة هادئه أو غير ذلك.

ولسنا نستطيـع أن نحصى الاضرار التى أصابت وتصيب المجتمع المصرى من جراء انقسامه الى عالمين عالم للمرأة وعالم للرجل وصف بعض هذه الاضرار كتابنا المجددون وبعضها من الدقه والعمق والخفاء بحيث تنتظر قلم قاسيا أو روائيا عبقريا — نحن فى أشـد الحاجه إليه — ليحللها ويفضحها ويبرزها واضحه قويه

الرجـل المصرى لايفهم المرأة . والمرأة المصريه لاتفهم الرجل ولم يخلق الرجل والمرأة ليجهل أحدهما الآخر . ولم يخلق العالم ليقسم الى عالمين . فلابد من عـلاج حاسم نصلح به حياتنا الاجتماعيه وحياتنا العاطفيه وثقافتنا فى هذه الناحيه . ولابد أن نمهد لهذا العلاج تمهيدا طبيعيا . نريد أن نقول انه قد آن الاوان لان نقرر التعليم المختلط فى جميع مراحل التعليم ..

...

ننتقل الآن الى موضوع تناوله الدكتور طه حسين أيضا فى حيطه وحذر وكان يجب أن يتناوله فى قسوة وشدة . بل كان يجب — لو أننا نقيم الأشياء بقيمها — أن يكون هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لـكتابنا مفكرينا ورؤساء أحزابنا . تؤلف وتستقيـل بسببه الوزارات . ويدعى ويحل من أجله البرلمان . وتدور حوله معارك الانتخاب

نقصد بهذا حق الامه فى العلم والثقافه

ومن السخف الذى لايطاق أن يقف مخلوق مهما كانت مكانته ليعلن الينا رأيه فيمن يسمح له ذلك كأن هذا المخلوق سيـد أو ولى على الامه . وكأن الامه عبيد ينتظرون أوامر سيدهم للطاعه بغير حساب .

فالسؤال الصحيح الذى يجب ان نتساءله هو . هل ترغب الامه فى العـلم والثقافه أم لاترغب ؟ فاذا كانت ترغب فى ذلك فقد فضت المناقشه وقفل باب الجدل . ووجب أن نفعل

المستحيل لتحقيق هذه الرغبه الشريفه

يعيش الان فى مصر نحو ثلاثه ملايين فتى وفتاة بين سن الخامسه وسن الخامسه عشر. معظمهم متوسط الذكاء. ومنهم الممتاز الذكاء وقليل منهم من لايصل ذكؤه الى المستوى المتوسط ولاشك أن الذكاء والغباء موزع على السواء بين أبناء الاغنياء وأبناء الفقراء. ماذا يحدث الان لهؤلاء الثلاثه ملايين ؟

ان احصائياتنا الرسميه تدل على ان ثلاثة ارباع مليون منهم فقط هم الذين تأويهم مدارسنا، ومن هذا العدد مايزيد على نصف مليون لايصيب من التعليم إلا هذا الهزل الذى نسميه التعليم الالزامى.

ومن الواضح ان ربع المليون الباقى هم ابناء وبنات الطبقتين الغنيه والمتوسطه الذين يتمتعون بالتعليم الابتدائى والثانوى. ولاشك سيتمتع معظمهم بالتعليم العالى بعد قليل

خلاصة هذا ان تسعه أعشار فتيان وفتيات مصر لايسمح لهم الآن بنصيب من التعليم إذا استثنينا هذا الهزل الذى يعلم فى المكاتب الالزاميه ولايصيب مع ذلك الا اقليه من ابناء الفقراء. هذا بينما تفتح أبواب التعليم على مصراعيها امام ابناء الطبقتين الغنيه والمتوسطه — سواء منهم الاذكياء والاغبياء — ماداموا يدفعون مصروفات هذا التعليم.

ونحن نخدع أنفسنا عندما نقول ان الاغنياء يدفعون مصروفات تعليم ابنائهم، فمن المعلوم أولا أن هذه المصروفات لاتصل الى نصف مايتكلفه الطالب فعلا. أما النصف الآخر فان الامة هى التى تدفعه. واذا ذكرنا الامة

ومن المعلوم ثانيا أن ثروة الاغنياء فى مصر ليست نتيجة مجهودهم المستقل وانما هى فى نهاية الامر نتيجة مجموع مكدس من التضحيات يبذلها الفلاح المصرى فى كل دقيقة من حياته وبكل قطرة من دمه ..

فلماذا لانعلن الحق اذن ونقول أن الفقراء هم الذين ينفقون على تعليم أبناء الاغنياء ...

ومن يدرينا بعد ذلك أن هذا الغنى أو ذاك — الذى تفتح لابنائه أبواب التعليم — قد وصل الى غناه عن طرق انسانية شريفة. وأنه لم يتوصل اليه عن طريق القسوة أو المكر والخداع. ان لم يكن عن طريق الرشوة أو الاحتيال أو الاختلاس المستور. ومن يدرينا ان هذا الفقير او ذاك الذى يفرض على ابنائه الجهل — كان لايمكن الا ان يكون غنيا لولا رحمته اوجوده او صفاء قلبه...

ولكن لنفرض جدلا ان جميع اغنياء مصر اغنياء عن استحقاق وان جميع فقراء مصر فقراء عن استحقاق - وهذا مالا يقول به الا معتوه — أقول لنفرض هذا. فما هو فضل الابناء او ذنبهم فى ذلك ؟ اننا لانطلب العلم والثقافة للابناء من اجل خاطر الآباء. ولا مكافأة لهم على جدهم وقدرتهم على جمع المال. وانما نطلب ذلك لفائدة مصر ... فما هو ذنب مصر لكى نحرمها من كفايات ومواهب ابنائها الذين نصدهم عن التعليم او نعوقهم عن اتمام التعليم ؟

ان الآباء سيذهبون بعد قليل ويبقى الابناء الذين سيتكون منهم الجيل الجديد

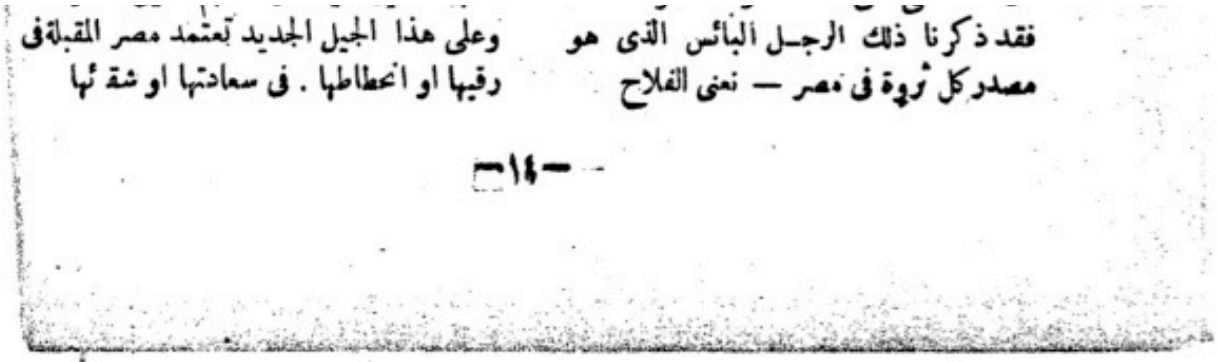

فقد ذكرنا ذلك الرجل البائس الذى هو مصدر كل ثروة فى مصر — نعنى الفلاح

وعلى هذا الجيل الجديد تعتمد مصر المقبلة فى رقيها او انحطاطها . فى سعادتها او شقائها